الكونت ليون تولستوي

فلسفته . مبادئه . شخصيته

جمعني الصدف برئيس من رؤساء الكنيسة الارثوذكسية بين رهط من الادباء وبعض رجال الدين فاخذنا بالطريقة تلو الطريقة والنادرة اثر النادرة حتى وصل بنا البحث الى ذكر الكتّاب والفلاسفة فوجهت الكلام اذ ذاك الى الارشمندريتي المحترم قائلاً : ما رأيك بالفيلسوف تولستوي ؟

اجاب : ان تولستوي ليس فيلسوفاً بل منتقد اخذ يطعن على الكنيسة ورجالها لغير سبب معقول . وعندي انهُ مُرتَدّ مجنون زنديق ليس الاّ .

فاجبتهُ : انك غير محق بما تقول فان تولستوي فيلسوف من اعاظم فلاسفة الارض وتعاليمهُ لا تزال تبث روح المحبة والسلام في العالم واذا كان قد انتقد رجال الكنيسة فلأنهُ يريد اصلاحهم لا هدم الكنيسة.

فاجابني بحدة : ليس في العالم فلاسفة غير ارسطو وافلاطون وسقراط وعندي ان الفلسفة هي البحث في الخالق والخلود والنفس ومن لم يبحث في هذه الاشياء لا يعد فيلسوفاً. وعما قالهُ ان اسحق نيوتن ليس بالرجل الفيلسوف لانحصار بحثهِ في ناموس الجاذبية وهكذا جان جاك روسو فهو منتقد ليس الاّ . وعبثاً كنت احاول اقناعهُ بان الفلسفة هي البحث في الاشياء ومسبباتها وان لكل علم فلسفتهُ ورأيت ان الكلام ممهُ متعذر لتشبعهِ من الخرافات اليونانية القديمة . ولذلك رأيت ان اوفي هذا البحث حقهُ على صفحات هذه المجلة الزاهرة

***

كل رجل عظيم يولد وفي فؤاده شيء من العظمة الطبيعية ويعيش بروح الجندي وان لم يحمل سيفاً لانهُ خلق للقيادة والامر فهو يهبط على الناس بذهنهِ ليقتادهم الى الطريق التي يهدي الى سفنها طائعين اوكارهين. فقد سيقت شعوب كثيرة الى ما كانت تكره لانها لا تستطيع ان تفلت من مغناطيسية القائد العظيم . ولعل العظيم في صورة الكاتب اكثر وسيلة الى القلوب واقرب مدخلاً الى الارواح لان الناس يرون امام اعينهم الزائفة القلقة الخائفة راساً عظيماً جباراً وقلماً بديعاً

ساحراً جذاباً فاذا حاولوا الافلات من ناحية امسكتهم الاخرى . واذا سكن القلم يوماً انطلق الراس اياماً وكم من كاتب في الدنيا ساد الافئدة سيادة الملوك مرافق الامم واذ لم يحمل سيفاً ولم يكن لهُ سلطان من مال او جاه او دهاء

وقد يولد كتّاب كثيرون ولكنهم لا يكونون كلهم اهلاً للقيادة والزعامة فيختص بها واحد منهم ويكون الباقون رسلاً لهُ وحاشية ومعاونين او اعداء وبغضاء ومنافسين. فاذا قام اليوم بعض الكتاب ورجال الدين ينكرون على تولستوي تعاليمه وفلسفتهُ فلأن الطبيعة نفسها تريد ان يكون له منافسون واعداء حتى تظهر شمسهم امام فوته ولكي تشهد العراك العنيف الذي تكون فيه الغلبة للقائد . واذا كان سقراط فيلسوفاً فان تولستوي لاعظم من فيلسوف . انا لا اريد الخوض في مبادىء تولستوي الدينية ولكني اعتقد انهُ اراد اصلاح رجال الكنيسة لا هدمها. ولا احب التوسع في هذا الموضوع لانني اكتب لغرض آخر وهو اظهار تولستوي بمظهر الفيلسوف العظيم الذي افاد البشرية اكثر ممن تقدمهُ من الفلاسفة

ان سقراط وافلاطون وارسطو وليكورغوس وصولون الفلاسفة الذين اراد الاب المحترم جعلهم فوق تولستوي تنحصر فلسفتهم في ابحاث قلما تهم الهيئة الاجتماعية في عصرنا الحاضر لان الشرائع الاجتماعية والسياسية تختلف باختلاف الممالك والشعوب وما يصلح فيها ويستقيم في الامة الواحدة قد لا يصلح في الامة الاخرى . وما يقع موقع القبول منها في شعب قد ينزل منزلاً سيئاً مكروهاً في شعب آخر . وهذه الحقيقة تحتاج ولا ريب الى عدة امثلة وشروح لانها لا تنساب سريعاً الى الفهم ولا تدخل على العقل فقد يعترضها ما يبدو لاول وهلة حقيقة جلية مقررة وهو ان الشرائع التي تنسب اليها عظمة امة من الامم خليقة بان تصير للانسانية جمعاً مثالاً حسناً ونموذجاً طيباً مقرراً. ومن ثم فليس احكم ولا أسد ولا ارشد من اختيارها لامة اخرى ولو استوجب نشرها القوة والاكراه ولكننا قد بدأنا نتبين ما وراء هذا الرأي واشباهه من الاخطار والاضرار

ونحن لو تعمقنا قليلاً في دراسة حياة الامم والشعوب لرأينا ان شرائعهم ليست الا خلاصة عواطفهم وحاجاتهم الزمنية الموروثة التي خلقها لهم ماض طويل بعيد وانهُ ليس من الهين ان نبدلها او نحل محلها من الاصلاح ما نشاء ونريد . لان العوامل الهامة في تكوين الشرائع هي طبيعة الشعب ثم توسط ثم وجوه المعيشة

واساليب الحياة وطائفة اخرى من العوامل اهمها الضرورة وآخرها رغبة الناس. وللزمن وحده القوة الكبرى على تحديد هذه جميعاً. فاذا رأينا امة تعيش على شرائع ظلت عليها الدهر الاطول قلنا ان تقرر ان هذه الشرائع هي اشد الشرائع ملاءمة لها واتساقاً مع عواطفها وحاجاتها. واذا كانت الحرية تصلح لبعض الشعوب فان الانظمة الجافة الصلبة التي يسنها الفرد المطلق قد تكون افضل منها واجدى لشعوب اخرى. ونحن جديرون ان نقنع بهذه النظرية حتى لا نتصور ان الشرائع التي استطاعت مجهودات القرون الطوال ان تلائم بينها وبين حاجات احدى الامم يمكن ان تطبق على حاجات امة اخرى اذ ليس من السداد ولا من رجاحة العقل ان نكره السمكة على ان تتنفس في الهواء بحجة ان التنفس الهوائي عام بين الحيوانات فان في الوسط الذي تجد فيه ذوات الثدي حياتها لا تجد فيه السمكة الا الموت

وبناء عليه يمكننا القول ان مبادىء فلاسفة اليونان القدماء لا يوافق جلها احوال الجيل الحاضر ولا يمكنها ان تكون قاعدة ترتكز عليها آداب البشرية لان ملاءمتها لليونان في العصر القديم لا يستلزم ملاءمتها لاهل هذا العصر. وان الفلسفة العصرية قد هذبت فلسفات اليونان فاضطجع ارسطو وافلاطون وتلاميذهما فوق رفوف المكاتب ولا نهضة لهم الى الآن ولا محل لهم في تهذيب حياة هذا العصر الذي نبغت فيه طائفة من ذوي العقول الكبيرة التي جمعت في ادمغتها جميع ادمغة الذين جاءوا قبلها. وان شوبنهور وسبنسر ونيتشه وروسو وفولتير وستندال واضرابهم من الفلاسفة المتأخرين قرأوا ارسطو وسائر آداب اليونان وفلسفتهم قبل ان كتبوا حرفاً مما وضعوا من الآراء والفلسفات

ان تسفيه آراء تولستوي وتأليه فلسفة ارسطو فضيحة كبرى للعصر الذي نعيش فيه ولو خرج ارسطو للناس لصاح بالقراء « معذرة ايها السادة! اني لم اكن اريد ان ابعث اليكم لاني لا افيدكم الآن شيئاً فدعوني وافتحوا كتب تلاميذي فلاسفة المدنية والنور » هذا ولو وجد ارسطو في عصرنا هذا لبحث في غير المباحث التي قضى زمناً طويلاً في اثباتها

ولذلك نستطيع ان نقول ان تولستوي بالنسبة الى العصر الحاضر قد اتى بفلسفة اهم من فلسفة سقراط وافلاطون وارسطو لان كتاباته ومؤلفاته لم تكن

الا لتنتقد الانظمة القديمة وتتمشى مع روح الجيل. ولعل اكبر ما لفت اذهان الناس الى فلسفة تولستوي هي سهولة الحقائق التي بنيت عليها وبساطة العناصر الاولية التي تركبت منها فهي لا تحتاج الى كبير عناء في تفهمها. والسبيل الاول لادراكها هو ان نعلم اننا اذا اردنا ان نفهم حقائق الكون فعلينا اولاً ان نفهم معنى الحياة وهذا هو الذي يميز فلسفة تولستوي عن جميع المبادىء الفلسفية القديمة والحديثة والمعاصرة لان الذهن او العقل انما وجد لخدمة هذه الحركة المستمرة التي نسميها الحياة. وهكذا وجد العلم لاجل الحياة ولم توجد الحياة لاجل العلم. ولسنا نستطيع ان نفهم اسرار المعلوم والمجهول بعقولنا كما يقول الايدياليون او طلاب الكمال الانساني ولا في العالم الخارجي الذي يحيط بنا كما يقول الطبيعيون ولكن سبيلنا الى فهم تلك الاسرار هو الحياة

ان تولستوي يعتقد ان اكبر واجبات الفلسفة هو ان تفعل ما لا يستطيعهُ العلم وهو فهم الحياة. ومن يطالع مؤلفاتهِ يجد ان فلسفتهُ نمت مع روح العصر ومطالبهِ فبحث في الحياة الزوجية والحياة الروحية بحثاً اوفى وارقى من ابحاث الذين تقدموهُ. وجميع اعمالهِ تدل على انهُ يقول ويعمل ليكون هو نفسهُ قدوة لسواهُ من طلاب فلسفتهِ وعشاق آدابهِ. فقد قصد مرة ان يوزع املاكهُ كلها على الفقراء والمحتاجين ويعيش عيشة المسكنة مثلهم ولكن زوجتهُ أبت عليهِ ذلك حاسبة ان لا حق لهُ في ان يحرمها واولادها مما لهم وكان يعيش عيشة الفلاحين ويقضي معظم وقتهِ في تعليم اولادهِ. وآراؤهُ تقضي باطراح الاوهام والخرافات والسلف والعتو والاعتماد على طهارة السيرة والسريرة ومعاملة الناس بالحسنى الى حد انكار الذات وايثار الغير على النفس وعدم الانقياد للسلطة اذا كانت تجبر المرء على ما يخالف ضميرهُ. ولم يذكر لنا التاريخ عن احد عاش لغيرهِ اكثر مما عاش لنفسهِ مثل تولستوي. ومؤلفاتهُ تدل على سعة علم واطلاع غزيرين واشهرها الحرب والسلم. وحيث المحبة فهناك الله. ومملكة الظلام. والطلاق. والبعث. وحنة كارنين. واهوال الاستبداد. وديانة المسيح. والحياة. وملكوت الله في داخلكم. والانسان ورئيسهُ. وحب الوطن. وما هي الفنون. الى غير ذلك من المؤلفات التي ترجمت الى اكثر اللغات الاوربية مما دعا الى تمجيد هذا الفيلسوف وتعظيمهِ

نعم ان تولستوي قد انتقد شعائر الكنيسة الارثوذكسية وهو من ابنائها وخالف بعض تعاليمها كما يظهر من مطالعة بعض مؤلفاته واخصها كتاب البعث غير انهُ اراد بهذا الانتقاد الاصلاح لا غير

وصفوة القول ان تعاليم تولستوي نافعة جدًّا للهيئة الاجتماعية . اما قيامة رجال الدين عليهِ وحرمانهُ من الكنيسة فامر يرجع الى افكارهِ الدينية. والحقيقة التي لامراء فيها انهُ فيلسوف عظيم اجمعت روسيا كلها والعالم اجمع على اكرامهِ وتعظيم قدرهِ لانهُ من نوابغ الرجال الذين افادوا نوع الانسان بافكارهم وسيرتهم المبرورة

نقولا شكري

التربية والتعليم عند القدماء(١)

(١)

ان التربية والتعليم هما صنوان . وقرينان . لا يمكن انسلاخ احدهما عن الآخر . لما بينهما من الارتباط المعنوي فكانهما اخوان وُلدا في جسم واحد تحركهُ روح واحدة . ولقد عرف القدماء هذه الصناعة ومارسوا التعليم والتهذيب . ولكن اختلفوا في مبادئها وطريقة القائها . فكانت لها مناهج متباينة واساليب متلوّنة بحسب حضارتهم او همجيتهم وهاك الآن مختصر تلك القواعد التي وضعتها كل امة :

التربية والتعليم عند المصريين — كانت تربيتهم دينية بحتة لاعمام العبادات فلذلك حصر العلم في كهنتهم وكانوا يمنون على من يعلمونهم ولو كانوا ملوكاً ودلت صفائح الآثار القديمة على آدابهم الرائعة ولاسيما كتاب الامير (بتاح حتب) في الآداب والعلم والسياسة وهو من آثار مكتبة باريس ترجمهُ بروكش . وفي شعر مصري ما معرّبهُ «كل صاحب حرفة مرؤوس الا العالم فانهُ رئيس نفسهِ » الى غير ذلك

عند البابليين والاشوريين والكلدانيين — عرفوا التعليم المجاني والعام

(١) مقتطفة من محاضرة مطولة ومن كتاب (الاسلوب القويم في التربية والتعليم) وهما تأليف صاحب المقالة وهو ممثل بالطبع مبنيّ على احدث الاساليب العصرية